الفصل فى نبوة المتنبي

من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٢ —

وتوجد قصيدتان تنسبان الى المتنبي فى هذا العهد ، إحداهما قالها وهو بأرض نخلة ، وهى ديار بنى كلب الذين يقال إنه تنبأ فيهم وهى هذه القصيدة :

كم قتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ ... بياضِ الطُّلى وورد الخدودِ
وعيونِ المها ولا كعيونٍ ... فتكتْ بالتَّمِيمِ المعمود
دَرَّ دَرَّ الصِّبا أيامَ تجرِ ... ي ذيولى بدار أثلة عودى
عمْرَكَ الله هل رأيتَ بدورا ... طلعتْ فى براقع وعقود
راميات بأسهم ريشُها الهُدْ ... بُ تشق القلوبَ قبل الجلود
يترشَّفْنَ من فمى رشفات ... هُنَّ فيه أحلى من التوحيد
كلُّ خَمصَانَةٍ أرَقُّ من الخمـ ... ـر بقلبٍ أقسى من الجلمود
ذات فرعٍ كأنما ضرب العنـ ... ـبر فيـــه بماء ورد وعود
حالكٍ كالسَّوادِ جَثْلٍ دَجُورٍ
وبِّ أثيثٍ جَعْدٍ بلا تجعيـــد
تحمل المسكَ عن غدائرها الرِّ ... يحُ وتفترُّ عن شتيتٍ برود
جمعتْ بين جسم أحمدَ والشَّقْـ ... ـم وبين الجفون والتسهيد
هذه مهجتى لديك لحَيْنى ... فانقصى من عذابها أو فزيدى
أهل ما بى من الضنا بطلٌ صيـ ... ـد بتصفيف طُرَّةٍ وبجيد
كلُّ شىء من الدماء حرام ... شربهُ ما خلا دم العنقود
فاسقنيها فدًى لعينيك نفسى ... من غزال وطارق وتليدى
شيبُ رأسى وذلتى وتحولى ... ودموعى على هواك شهودى
أىّ يوم سررتنى بوصالٍ ... لم تَرُعْنى ثلاثةٌ بصدود
ما مُقامى بأرض نخلة إلا ... كمُقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الحصان ولكـ ... ـن قبيصى مسرودة من حديد
لأمةٌ فاضةٌ أضاةٌ دِلاصٌ ... أحكمت نسجها يدا داود
أبن فضل إذا قنعتُ من الدهـ ... ـر بعيش مُعجَّل التنكيد
ضاق صدرى وطال فى طلب الرِّزْ ... ق قيامى وقلَّ عنه قعودى
أبدًا أقطع البــلاد ونجمى ... فى نحوس وهمتى فى سعُود
فلعلى مؤمِّلُ بعض ما أبـ ... ـلغ باللُّطف من عزيز حميد
لِسرىٍّ لباسُهُ خشنُ القطـ ... ـن ومرْوِىٌّ مرْوَ ليس القرود
عش عزيزًا أومت وأنت كريمٌ ... بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوسُ الرِّماح أذهبُ للغيـ ... ـظ وأشفى لغلِّ صدر الحقود
لا كما قد حييتَ غير حميـد ... وإذا متَّ متَّ غير فقيـد
فاطلب العزَّ فى لظىً وذر الذُّ ... لَّ ولو كان فى جنان الخلود
يقتلُ العاجز الجبان وقد يعـ ... ـجز عن قطع بخنق المولود
ويُوَقى الفتى المخسُّ وقد خوَّ ... ض فى ماء لبَّة الصنديد
لا بقومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرتُ لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذُ الجانى وغوث الطريد
انا أكن معجباً فعُجبُ عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى ... وسمامُ العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريبٌ كصالح فى ثمود

ويجب قبل أن ننظر فى هـذه القصيدة من جهة اتفاقها مع دعوى النبوة التى تنسب إلى المتنبي ، أن ننبه إلى أن النبوة لا تتفق مع صناعة الشعر ، لأن الشعر العربى إلى ذلك الوقت كان صناعة أوزان وكلام ، ووظيفة النبوة أسمى من أن تتقيد بقيود الشعر ، أو تعنى عنايته بزخرف اللفظ ، أو تعتمد اعتماده على الخيال ، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى فى سورة يس : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين —) كما يشير إلى ذلك وإلى بعد النبوة مما كان يلابس الشعر من اللهو والعبث قوله صلى الله عليه وسلم : لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ولم أقض شيئاً . عرانى مرة أخرى مثل ذلك

وهذا كله لم يكن المتنبي ليجهله ، وما كان له أن يقدم على دعوى النبوة معه . ولعل الذين نسبوا اليه هذه الدعوى قد شعروا بشيء من هذا حينما جعلوا له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ، لأنهم رأوا أن الشعر وحده لا يصح أن يستقل بأمر النبوة ، أو لا يلتئم معها . ومن ذلك الذي نسبوه اليه وذكروا أنه زعم أنه قرآن أنزل عليه : والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سنتك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين ، وضل عن السبيل

وكم يكون الشعر أبعد من وظيفة النبوة إذا كان صاحبه يتكسب به كصاحبنا المتنبي ، فانه نشأ شاعراً مداحا يتكسب بشعره ، ويسأل به ، ومن هذا قصيدته في مدح محمد بن عبيد الله العلوي ، ومطلعها :

أهلاً بدارٍ سباك أغيدُها أبعدُ ما بان عنكَ خردُها

وقد ذكر فيها أن ناقته حملته إلى هذا الممدوح :

إلى فتًى يُصدر الرماحَ وقد أنهلها في القلوب مُوردُها
له أيادٍ إليَّ سالفةٌ أعُدُّ منها ولا أعَدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال :

وكم وكم نعمةٍ مُجَدَّاةٍ ربيتها كان منك مولدُها
وكم وكم حاجةٍ سمحت بها أقرب مني إليَّ موعدُها
ومكرمات مشت على قدم الـ ـبر إلى منزلي تَرَدُّدُها
أقرَّ جدي بها عليَّ فلا أقدرُ حتى الممات أجحدُها
فعد بها لا عدمتُها أبداً خير صلات الكريم أعودُها

وقد عذله أبو سعيد الجيمري في ذلك العهد على تركه لقاء الملوك وامتداحهم ، فقال له :

أبا سعيدٍ جَنَّبَ العتابا فربَّ رأى أخطأ الصوابا
فانهم قد أكثروا الحجّابا واستوقفوا لردّنا البوابا
وإن حَدَّ الصارم القرضابا والذابلات السُّمر والعرابا
ترفعُ فيما بيننا الحجابا

ولا شك أن طبقة الشعراء المتكسبين أدنى طبقات الشعراء نفوساً ، وأبعدها عن الصلاح والتقوى ، وهي طائفة تتخذ الشعر وسيلة لجمع المال ، ولا يهمها في دنياه غيره ، ولا تطمح نفوسها الى وظيفة كوظيفة النبوة تكلفها من الكمال الروحي ما ليس في طبيعتها

وإن هذه الحادثة لتدل على مقدار ما بلغ اليه المتنبي في ذلك قال : أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد ، فأخذت بجانب مندبلي خمسة دراهم ، وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت اليه وقلت : بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكتراث : إذهب فليس هذا من أكلك ، فتماسكت معه وقلت : يا هذا دع ما يغيظ واقصد الثمن ، فقال ثمنها عشرة دراهم ، فلشدة ما جبهني ما استطعت أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ودعا له وقال : يا مولاي بطيخ باكور ، باجازتك أحمله إلى البيت فقال الشيخ : ويحك بكم هذا ؟ قال بخمسة دراهم ، قال بل بدرهمين ، فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل ، فقلت له : يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك ! استتممتَ على في هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً ! فقال : أسكت . هذا يملك مائة ألف دينار ، قال المتنبي : فعلمت أن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار ، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار

(يتبع)

عبد المتعال الصعيدي

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن إدارة « الرسالة »

والثمن ١٢ قرشاً